تولد العقول وارتقاؤها

وقفنا امس في معمل كبير من معامل السكر نطرّح فيه عيدان القصب فيقطعها ويرفعها ويلقيها في آنية كبيرة فينصبُّ عليها الماء ويزحمها الهواء المضغوط فيخرجان العصارة منها ويمضيان بها الى آنية كبيرة حيث تُصفّى وتُغلى الى ان يشتدّ قوامها . ثم نوضع في آنية تدور على محورها دوراناً سريعاً جدًّا الفاً ومئتي دورة في الدقيقة الواحدة فيطير الماء منها وتصبح سكرًا متبلوراً شفّافاً . ويجفّف المصاص قليلاً ويحرق بدل الفحم والآلات البخارية تدير هذه الاعمال كلها نهارًا وليلاً اربعة اشهر شمالية وتنير المعمل بالنور الكهربائي حتى يبقى الليل نهارًا

ولقد زُرع قصب السكر في هذا القطر منذ مئات من الاعوام وكان الناس يستخرجون السكّر منهُ بمعصره وتجفيف العصارة في الشمس . رجل واحد يعصر قصبةً ويجفف عصارتهُ . وجروا على ذلك قرناً بعد قرن الى ان أُتقنت آلات العصر وصارت كبيرة متينة ثم أُبدلت حديثاً باخراج العصارة بالهواء والماء على ما شرحنا اليوم آنفاً . وكثر العمّال وخُصَّ كلٌّ منهم بعملهِ وزادت اساليب التجفيف اتقاناً رويدًا رويدًا حتى بلغ كل ذلك حدًّا يقف عندهُ العالم مدهوشاً اذ يرى الآلات الصمّاء تعمل اعمالها كانها حيوانات ناطقة

وهذا الارتقاء من البسيط الى المركّب ومن الساذج الى المتقن جارٍ في كل الاعمال بل هو ناموس شامل لكل الموجودات من الذرة الثابت على الحائط الى الانسان سيد المخلوقات الارضية ومن الجويصلة (١) الاولى التي تألف منها اجسام الاحياء الى العقل السامي على الموجودات

ونريد بالعقل هنا مجموع افعال الدماغ والاعصاب سواء شعر بها صاحبها او لم يشعر . ويقول علماء الحياة ان الفعل يوجد قبلما يوجد العضو الصالح لهُ كما ان الحراثة وُجدت قبل وجد المحراث المتقن وكما ان استخراج السكر من القصب وُجد قبلما وجدت المعامل الكبيرة الصالحة لذلك . وكما تنوعت المحاريث وارتقت رويدًا رويدًا الى ان صارت تجري بالبخار وتحرث الفدان في دقيقة من الزمان وكما تنوّعت آلات عصر القصب واستخراج السكر حتى صارت تستخرج مئات من القناطير في اليوم كذلك تنوّعت الاعضاء وارتقت من ادناها الى الدماغ الذي هو ادقها وارقاها

(١) الجويصلة تصغير الجوصلة وهي معدة الطائر تطلق على الاحياء التي يتألف كلٌّ منها من كيس يأخذ كل من الاعضاء حسب انتظامه وعلى الاجزاء الاولى التي تتألف منها اجسام الحية المركبة

ثم انك اذا نظرت الى قبيلة من قبائل البدو رأيت كل بيت منها يطحن الدقيق ويعجنهُ ويخبزهُ ويرعى المواشي ويحلبها ويصنع جبنها ويستخرج سمنها ويجز غنمهُ ويغزل صوفها ويحوكهُ فيعمل وحدهُ كل الاعمال اللازمة لمعيشتهِ . واذا ارتقت تلك القبيلة في مراقي الحضارة كثرت اعمالها وتوزَّعت عليها فاختص واحد منها بطحن الحنطة وآخر بعجن الدقيق وآخر بخبز الخبز وآخر ببيعهِ . وقس على ذلك سائر الاعمال فانها تكثر بارتقاء الانسان وتتوزع على الناس ويتخصر كل منهم على عملٍ منها ويجيد فيهِ . وهذا شأن اعمال الجسد ووظائف الاعضاء فان الحي البسيط التركيب المؤلف من حويصلة واحدة تقوم حويصلتهُ بكل العمل اللازم لحياتهِ من هضمٍ وتنفس . ثم اذا ارتقى وكثرت حويصلاتهُ او اجزاؤهُ الاولى اقتصر بعضها على وظيفة التنفس وبعضها على وظيفة الهضم فزاد كلٌّ منها اتقاناً لوظيفتهِ . ومن الوظائف اللازمة لكل جسم حيٍّ الانفعال او التأثر بالمؤثرات الخارجيَّة . ولهذا التأثر درجات مختلفة فاذا كان ثمَّا يجعل الحيَّ صالحاً للعيشة في الاحوال التي هو فيها بقي فيهِ ورسخ بالانتخاب الطبيعي اي ببقاء ما تصلح لهُ احوال المعيشة التي هو فيها وانقراض ما لا تصلح لهُ . وعلى هذا الاسلوب تنوَّعت اعضاء الحيوان وارتقت ووجد العقل فيها وانحصر في بعض اعضائها

والعقل على ما عرَّفناهُ سابقاً مجموع افعال الدماغ والاعصاب عموماً وقد ارتقى من التأثر البسيط الذي يُشاهَد في ادنى انواع الحيوان . فان جسم كل حيوان من الحيوانات العليا والانسان في جملتها مؤلف من حويصلات تقوم بالوظائف المعدَّة لها وهي اعمال الجسم ما دام حيًّا وهذه الوظائف موزَّعة عليها فبعضها للهضم وبعضها للتنفس وبعضها للافراز وبعضها لغير ذلك وارقاها كلها وادقها بناءً للشعور والتفكر وسائر قوى العقل وهي الدقائق العصبيَّة التي في الدماغ . فالدماغ آلة العقل وظيفتها وهما يرتقيان معاً ويحطان معاً

قلنا ان بعض الحيوانات الدنيا بسيط جدًّا ليس في الواحد منها سوى حويصلة واحدة وهو يعيش مستقلاً يتغذى ويهضم ولكنهُ لا يستطيع ان ينتقل من مكان الى آخر ولا ان يدفع عنهُ الاعداء لان ليس لهُ اعضاء يعتمد عليها في الانتقال والدفاع . ثم اذا تعدَّدت الحويصلات في الحيوان فصار ينتقل من مكانٍ الى آخر صار يتأثر بالمؤثرات الخارجيَّة فتظهر فيهِ اول جرثومة من جراثيم الشعور اي التأثر بالمؤثرات الخارجيَّة ويكون هذا التأثر منتشرًا في حويصلاتهِ كلها هو وغيرهُ من الوظائف ثم يجتمع في بعضها ويجتمع غيرهُ في البعض الآخر جريًا على ناموس تقسيم الاعمال الذي اشرنا اليهِ آنفاً . ولا بدَّ من ان يختلف التأثر باختلاف المؤثرات فلا تبقى الحويصلة الواحدة جامعة لكل نوع منهُ بل يختص بعضها

بنوع وبعضها بنوع آخر جرياً على ناموس تقسيم الاعمال ايضاً فيصير بعضها يتأثر باموا ج النور وهو الدقائق التي في آلة البصر وبعضها يتأثر باموا ج الصوت وهو الدقائق التي في آلة السمع وبعضها يتأثر برواتح المراد وهو الدقائق التي في آلة الشم وبعضها يشعر بطعم الطعوم وهو الدقائق التي في آلة الذوق . وقس على ذلك الدقائق التي تتأثر بالحر والبرد والدقائق التي تتأثر بالثقل والضغط والتي تتأثر بالالم واللذة . ولكل آلة من هذه الآلات او حاسة من هذه الحواس عضو يتصل به التأثير واعصاب ينتقل عليها ومركز في الدماغ يشعر به ويكون الدماغ في الحيوانات الدنيا بسيطاً ثم يتركب وينقسم الى اقسام مختلفة لكل قسم منها وظيفة خاصة به جرياً على ناموس تقسيم الاعمال . والمعلومات ترد اليه على طريق الشاعر فيدركها ثم يصدر اوامره الى العضلات فتتحرك حسبما يشاء . وهو قائم في باطن الجمجمة تقيه عظامها من الآفات وتمنع عنه المؤثرات الخارجية فلا يتصور شيئاً غير ما يرد عليه عن طريق الشاعر ولا ينكر امراً غير ما يستفيده من الاختبار ولا تصل اليه المؤثرات بالذات تتصل به مباشرة لكن الشاعر تقوم بذلك كله فتأتيه بالتأثيرات المختلفة مما هو خارج عنه وتأتيه ايضاً التأثيرات من الجسم نفسه وهي دوافع طبيعية موروثة في الحيوان

وبعض المؤثرات الخارجية يبلغ تأثيره المراكز العصبية السفلى في الحبل الشوكي اي النخاع الذي في فقرات الظهر فيتحول إلى حركة من غير ان يصل إلى مراكز الوجدان العليا كما اذا وخزت يد النائم او رجله فانه يقبضها من غير ان يشعر بألم . ولكن بعضها يصل تأثيره الى الدماغ نفسه فيشعر به ويعمل بموجبه كما اذا رأيت عقبة في طريقك فانك تشعر بها وتحيد عنها بارادتك . وتسمى الافعال التي من النوع الاول افعالاً آلية او منعكسة والتي من النوع الثاني افعالاً ارادية او مدركة . وبين الاولى والثانية درجات كثيرة تقرب من هذه او تلك حتى يتعذر احياناً الفرق بين الافعال الارادية والافعال الآلية

ثم ان الفعل الارادي اذا تكرر صار من قبيل الافعال الآلية كغسل الوجه في الصباح بعد القيام من النوم فقد يغسل الانسان وجهه وهو لاه او مفكر بامر آخر كأن تكرار هذا الفعل يوصل الاعصاب الحاكمة عليه على اسلوب يجعلها تعيده من نفسها من غير روية كلما دعت الحال الى اعادته . وعلى هذا النمط تتولد العادات في الانسان . اي ان العمل الذي يعمله اليوم بعد الروية والجهد العقلي يعمله غداً باقل روية وجهد ثم اذا تكرر يوماً بعد يوم صار يفعله بلا جهد ولا روية . وعلى هذا النمط تتكون الاخلاق وتتملك ملكات الخير او ملكات الشر فتصير اعمال الانسان كلها ملكات في نفسه وينعل في يومه ما تدرب على فعله في امسه

ثم ان التأثير الذي يبلغ الدماغ اليوم لا يزول كلهُ منهُ غداً بل يبقى بعضهُ فيهِ وهو المحفوظات التي نتذكرها حيناً بعد حين . بل يبقى فيهِ بعض هذا التأثير مدى الحياة ويتصل من الانسان الى اولادهِ واولاد اولادهِ بالوراثة ويحفظ قروناً كثيرة اذا كان صالحاً للحفظ والاَّ محيَ وزال . فيكون في الدماغ الواحد تأثيرات جديدة تأتيهِ من الخارج على طريق المشاعر او من الباطن من اعضاء الجسم المختلفة . وتأثيرات قديمة من محفوظات الذاكرة . وتأثيرات موروثة من الوالدين والاجداد ولذلك تدعو الحال الى التمييز بينها كلها وهذا التمييز من وظائف العقل ايضاً فيقتصر على ادراك التأثيرات التي يمكن العمل بموجبها ويهمل ما سواها . فاذا كان انسان ينتش عن ابنهِ في مدينة كبيرة مرَّ بالبيوت والشوارع والناس والمركبات ووقعت عيناهُ على مالا يحصى من المرئيات ولكنهُ لا يلتفت الى شيء منها لا لان رؤيتها لا تؤثر في دماغهِ بل لان اشتغال بالهِ بالتفتيش عن ابنهِ يشغلهُ عن هذه المؤثرات كلها فلا يدركها . وكلما زادت المطالب وكثرت الروابط صعب على الانسان ان يختار ما يجب عليهِ فعلهُ لاسيما وانهُ لا يعلم ما اذا كان الفعل نافعاً او ضاراً الاَّ بعد ان يفعلهُ ويرى نتيجتهُ

ويولد الطفل الآن واعصابهُ مستعدة لتأثُّر بالمؤثرات الخارجيَّة والدوافع الطبيعية الموروثة من اسلافهِ ولكنهُ لا يستطيع ان يتحكم في ما يجب عليهِ منها الاَّ بعد الاختبار واذا بلغهُ اختبار غيرهِ وجب ان يتطبَّق على اختبارهِ لكي يرسخ في نفسهِ . والحكمة ان يعرف الانسان ما يجب عليهِ فعلهُ والفضيلة ان يفعل ذلك الواجب واذا مرن على فعلهِ صار ملكة في نفسهِ . واساس مكارم الاخلاق ان يعرف الانسان افضل الاعمال ويختارها ويعملها فلا تصير الاخلاق الكريمة ملكة في النفس بالسماع بل بالعمل

وهنا يبتدئُ الفرق الحقيقي بين الانسان الناطق والحيوان الاعجم . فان الحيوان خاضع للمؤثرات الخارجية خضوعاً مطلقاً فما وافقت افعالهُ الاحوال التي هو فيها عاش واخلف نسلاً وما خالفتها افعالهُ الاحوال التي هو فيها ضعف وانقرض نسلهُ فيبقى من انواع الحيوان ما تطبق افعالهُ على الاحوال المحيطة بهِ تصير اعمال عقلهِ آليَّة وفي المساة بالغريزة فيقال انهُ يبني عشهُ ويسعى لنفسهِ بغريزة موجودة فيهِ لا بتعقُّل وتدبير . ولكن هذا الفعل الآلي غير ثابت على حالة واحدة دائماً بل يتغير بعض الشيء تبعاً للاحوال التي تدعو الى تغييرهِ كما يتغير جسم الحيوان وجسم النبات ايضاً تبعاً لاحوال المكان والزمان واساليب المعيشة

من جال في مدن الوجه القبلي الآن رأى طائر السماني يباع بالعشرات والمئات ويدوم الحال كذلك شهراً من الزمان ثم ينقطع ورود هذا الطائر الى ايام الخريف فيرد حينئذٍ ويصاد

في اطراف الوجه البحري عند ساحل البحر بين دمياط ورشيد فانهُ من القواطع التي تشتي في البلاد الحارَّة فراراً من برد دور با وتصيف في البلاد الباردة فراراً من حر افريقية . تفعل مالا يفعلهُ الاَّ نفر قليل من المهاجرين في هذه البلاد لا لأن كل سمانى منها اقف في فصل الربيع ولقول في نفسها قد صار الصيف على الابواب ولا بدَّ من الرحيل الى بلاد باردة خوفاً من الحر ثم تقف هي واولادها في البلاد الباردة بعد انقضاء الصيف ودفء فصل الشتاء وتقول لقد اقبل البرد والزمهرير فلا بدَّ من الارتحال الى بلاد شتاؤها ربيع كما يفعل الانسان بل لان طوائف السمانى ذهبت كل مذهب فراراً من البرد والحر فما اتفق لهُ ان وصل الى بلاد حارَّة شتاء والى بلاد باردة صيفاً عاش واخلف نسلاً وانقرض ما سواهُ . ثم تفرَّق نسل الذي عاش فراراً من الحر والبرد فما بلغ البلاد الحارَّة شتاء والباردة صيفاً عاش واخلف نسلاً وعلمهُ جرًّا الى ان رسخت فيهِ غريزة القطوع من البلاد الباردة الى الحارة والرجوع من البلاد الحارة الى الباردة . اما الطيور الاوابد اي الَّتي تقيم في بلاد واحدة ولا تقطع منها الى غيرها فاهتدت الى اساليب اخرى تتقي بها البرد والحر . والاَّ فلو ضعفت غريزة السمانى حتى لم يعد يهتدي الى اماكن تقيهِ البرد والحر لا نقرض نسلهُ وزال نوعهُ او تحوَّل الى شكل آخر

اما الانسان فارتقت قواهُ العقلية وقويت فيهِ قوة التمييز والارادة فصار جانبٌ كبير من اعمالهِ ارادياً اي نمت في دماغهِ المراكز العصبية التي وظيفتها التمييز بين النافع والضار واختيار الاول والابتعاد عن الثاني ولكنهُ لم يصل إلى ذلك الاَّ بعد جهاد عنيف مدة قرون كثيرة ولم يتكامل بالنظر الاَّ بعد تحشُّم المشاق الكثيرة . وقد بقي فيهِ كثير من القوى الغريزية وهو يفعل الافعال الَّتي تدعو اليها قسراً ومن ذلك كل الافعال الحيوية كالتنفس والهضم وما اشبه

قال الرئيس داود جوردان الاميركي وعليهِ اكثر اعتمادنا في هذه المقالة انهُ كان عندهُ قردان بالغان اسم احدهما بوب واسم الثاني جوكو وهما ليسا من القرود الَّتي تأكل البيض وكان عندهُ قرد ثالث غير بالغ اسمهُ موفو وهو من القرود الَّتي تأكل البيض ولكنهُ كان حينئذٍ طفلاً ولم يكن قد رأى بيضة في حياتهِ . فاعطى كلاًّ من هذه القرود الثلاثة بيضة بيضة ليرى ما يفعل بها ولم يكن احد منها قد رأى البيض قبلاً . فالقرد موفو وهو الصغير كسر البيضة على اسنانهِ العليا وثقب فيها ثقباً وامتصَّ كل ما فيها ومسك قشرتها بين عينيهِ والنور لكي يتحقق انها فرغت تماماً ثم رماها من يدهِ . فمن ذلك كلهُ بالغريزة الموروثة من اسلافهِ لانهُ لم يكن قد رأى بيضة قط فكان فعلهُ آليًّا محضاً وجرى عليهِ بعد ذلك في كل ما قُدِّم لهُ من البيض

اما القرد بوب فظن البيضة جوزة على ما يظهر وهو من نوع القرود التي تأكل الجوز فامسكها وكسرها باسنانه وحاول نزع نشرها فاندلق محها وزلالها على الارض فنظر اليه مستغربًا ثم تحفهُ عن الارض بيديه مع ما امتزج به من التراب والرمل ووضع الكل في فيه ووضع القشرة معهُ. وهذا الفعل ليس غريزيًا آليًا بل عقليًا ارادياً. والعقل اذا لم يتدرب آلة ضعيفة للتمييز بين الصالح وغير الصالح فلم يدلهُ على كيفية كسر البيضة حتى لا يراق محها وزلالها ولا على كيفية فصلها عن التراب والرمل ولا على ان القشر لا يؤكل ولا فائدة من اكله ولكنهُ لو اختبر ذلك مرارًا كثيرة لوصل إلى ما وصل اليه القرد الاول الذي ثقب البيضة قليلاً وامتص ما فيها ثم رمى قشرتها من يدهِ. والقرد جوكو كسر البيضة وحاول اكلها كما فعل اخوهُ بوب ولكنهُ لم يستطب طعمها فطرحها كلها من يدهِ

والحيوانات تعيش وتموت مدفوعة الى اعمالها بقواها الغريزية ولا تستعمل قوة التمييز القليلة آلتي فيها الاَّ قليلاً. بل ان استعمالها لها لا يجديها نفعًا في الغالب كما ان من يعتاد عملاً من الاعمال حتى يصير فعلهُ لهُ آليًا تعضًا يخطئ فيهِ اذا فكَّر وهو يفعلهُ. او كما يمشي النائم (المصاب بالسمنبولزم) على جدار ضيق لا يستطيع المشي عليهِ وهو مستيقظ واذا استيقظ واستعمل ارادتهُ في تحريك رجليهِ سقط عنهُ

وبالغريزة تجنَّب المواشي النباتات السامَّة فلا ترعاها لانها اما ان تجنبها او لا تجنبها فاذا لم تجنبها ماتت وانقرض نسلها واذا تجنبتها عاشت واخلفت نسلاً فصار نسلها يتجنَّب تلك النباتات مثلها واذا كان فيهِ ما لا يتجنبها مات وانقرض نسلهُ وهلمَّ جرًّا الى ان يرسخ فيها تجنُّب تلك النباتات ويصير غريزة. والمواشي آلتي تتجنَّب النبات السام في بلاد اذا نقلت الى بلاد اخرى فيها نبات سام لم ترَهُ قبلاً في واسلافها اكلتهُ غير محترسة فمات منهُ. واذا اتفق ان واحدة منها تجنَّبتهُ لكراهة في طعمهِ او في رائحتهِ او لغير ذلك عاشت واخلفت نسلاً وظهر هذا الميل في نسلها وقوي فيهِ بالانتخاب الطبيعي على توالي الازمان وجرت عليهِ لا عن تمييز وادراك بل بدافع طبيعي موروث فيها

فالغريزة والتمييز متولدان كلاهما من التأثر بالمؤثرات الخارجية لكن الغريزة تقضي الى حدوث اثر واحد محدود لكل مؤثر خارجي واما التمييز او العقل في عرف الحكماء فيميز بين الآثار المختلفة ويفضل بعضها على بعض ويدعو الى الفعل الذي يختارهُ. وهو اذا كان ضعيفًا كان كثير التردُّد قليل السيطرة واما اذا ارتقى صار حازمًا مثابرًا لكل ما تدعو اليهِ مطالب الحياة. هذا ونكتفي الآن بما تقدَّم وربما عدنا الى هذا الموضوع في الجزء الثاني